أول الكلمات الأخيرة

دار ديوان العرب للنشر و التوزيع – مصر - بورسعيد

اسم العمل : أول الكلمات الأخيرة

اسم المؤلف : محمد شيخ إسماعيل

الجنسية : سوريا

التصنيف الأدبي : ديوان شعر بالفصحى

الترقيم الدولي : 6 – 30 - 6707 – 977 - 978

رقم الإيداع : 9087 / 2019

الموقع الرسمي للدار : http://dewanalarab.com

المدير العام : محمد وجيه

تليفون : 00201211132879

0020663732919



أول الكلمات الأخيرة

شعر

محمد شيخ إسماعيل



المحتويات

مقدمة	9
روزا	13
إلى رياض	19
الجنود	34
قبيل مقتل البدوي	37
أمي	42
اللبوة	45
نجوى	48
على وتر البن	51
الغريب	58
طلع الصباح	64
أسود وأبيض	75

السيوف	82
غنِّ	85
هل	88
أول الكلمات الأخيرة	91
باختصار	98
البنات	99
جودي	104
أيوب	111
أطلال الأمير	112
في بعدك	118
زينب	123
وجهك	126
ليس رثاء لابن ياسر	127

أول الكلمات الأخيرة

مقدمة

الشعر هو ذلك الطائر الذي يسمو بروح الشاعر بحثًا عن تأملاته الكونية،وأسئلته الشغوفة؛لذا لم يكن يسيرًا علي أن أمارس محاولةً لأسر هذا الحر الطليق بالتقديم لهذه المجموعة الشعرية ففي كثير من الأحيان تفسد المقدمات الشعر ، وكان الهاجس الذي يؤرقني هو الشعور بألَّا أحيط الشاعر بما يستحق من التقديم الذي يليق به شخصيًّا ،وبتجربته الشعرية المهمة ، بيد أني لم أستطع التملص من شرك هذا المحظور .

ولد الشاعر محمد شيخ إسماعيل في قرية الملند في عام 1975م ، وهي إحدى القرى الجبلية الجميلة في الشمال السوري .

أما عن شعره في مجموعته الشعرية (أول الكلمات الأخيرة) فنحن أمام شاعر متمرس امتلك أدوات الشعر واستطاع في تجربته الشعرية أن يجدِّد في

موضوعات الشعر وشكله،وأعانه في ذلك ثقافته المتنوعة والثرية ، وخصب موهبته التي أحسن صقلها . ومن يعرف الشاعر يدرك تمامًا أنَّ شعره هو سلوكه،وأسلوبه في الحياة ، فلا انفصام بين شعره وشخصه . إنه لا يجيد التواري خلف الكلمات، أو أن يتقنَّع وراء نصوصه ، وهذا الصدق الشعري الإنساني هو ما يضفي جمالًا على هذه المجموعة .

تتألَّف هذه المجموعة من أربع وعشرين قصيدة ، تنوَّعت موضوعاتها فنرى فيها (المرأة ، والوطن ، والحب ، والغربة ،والحرب ، والرثاء ...) فلم يتناول الموضوعات تناولًا تقليديًا كما كانت عليه أغراض الشعر القديم واستطاع أن يجد لنفسه قالبه الفني الخاص به.

وفي بناء قصيدته استخدم البناء القائم على الصورة المفردة البسيطة ، والصورة المركبة المتنامية التي تؤلف الصورة الكلية ، وقد تمكن الشاعر في هذه المجموعة من إيجاد هذا الخيط النفسي الذي أحكم فيه ترابط قصائده من خلال التقانات التي امتلكها كما في قصائده (طلع الصباح، وأول الكلمات الأخيرة) .وحتى صوره البسيطة هي صور جميلة بديعة من خلال التآلف

بين الوحدات المعنوية في وجه الشبه التي أوجدها في الصور التشبيهية بين ركني التشبيه؛فالبناتُ سنونو،والبناتُ صمت الصحارى،والبناتُ عروضُ الحياة هي صور مبتكرة وتفاجئ القارئ . وكذلك الحشد المكثف في الصور القائمة على المفارقة التصويرية وخاصة في قصيدة (أسود وأبيض) والصور القائمة على المفارقة والدهشة في قصيدة (السيوف) ، والبناء الدرامي في قصائد عدة مثل (رياض ، البنات ، أطلال الأمير) والصور القائمة على التوليد والتداعي ، وهي كثيرة فالصورة تمهد للأخرى ، وتستدعيها . والبناء اللولبي كما في قصيدة (قبيل مقتل البدوي) من خلال تكرار النداء فيها في مطالع مقاطع هذه القصيدة بحركة ارتدادية واءمت بين المقاطع في صورة كلية ، في هذا البناء جدَّد الشاعر في شكل القصيدة بأسلوب رشيق مثير.

وإيقاع القصيدة عند محمد شيخ إسماعيل تصاعدي يتدرج؛ ليلائم بناءه الإيقاعي الدرامي ، والموسيقى رشيقة، وكانت التفعيلة مطواعة؛تآلفت في مقامات أجاد الشاعر في إعادة توزيعها بين سطوره الشعرية ذات النغمة الخارجية المنبعثة من موسيقى داخلية ذات بعد إيحائي نفسي إبداعي .

لغته الشعرية شكّلت انزياحًا دلاليًّا بديعًا ، وابتكر لغته الشعرية الفريدة من خلال التكثيف وتحرير اللغة ، والخروج على اللغة التقليدية ، فأكسب اللغة بعدًا إيحائيًّا جماليًّا في سياقه الشعري الخاص به .في جعبتي الكثير والكثير عن هذه المجموعة ،لكن يضيق المقام عليَّ هنا ، أتمنى لكم قراءة ممتعة في هذه الرحلة الجميلة في رياض قصائد الشاعر محمد شيخ إسماعيل .

أحمد محمد سليم*

---

* كاتب وناقد سوري .

روزا

لا أدري

إنْ كنتُ أنا

مَنْ مازالَ هنا

يتأمَّلُ من نافذةِ المقهى الساحاتْ..

يتأملُّ قطعانَ الناس

تُنقِّل فوقَ الأرصفةِ الخطواتْ..

خطواتٍ يائسةٍ تنْقلها؛

لِتليقَ بيأسِ الطّرقاتْ..

مازلتُ هنا

أتملّقُ مولايَ الشعر

ولكن تتمنّعُ عنِّي الكلماتْ..

مازلتُ هنا

وأحاولُ أنْ أبكي

آهٍ ... هيهاتْ

مرَّتْ روزا

والصّدرُ ينوءُ بحمْلِ النّهدْ..

وأخافُ على خصرٍ

من نقْلِ الخطوةِ

أن ينقدْ..

للخطوةِ إيقاعٌ

يُخرسُ في المقهى

المذياعَ،

وقهقهةَ زبائنه

دحرجةَ النردْ..

ليخيِّمَ صمتٌ

لا شبهَ لهُ ،

لا ليسَ لهُ أبداً من ندْ..

لا يبقى إلاّ نقرُ خطاها،

وزئيرُ الشقراءِ الخصلةْ،

وصليلُ حواجبِها،

وهديرُ البحرِ الساكنِ في المقلةْ..

وهجيجُ النار

تتأجّجُ ورداً

في الخدْ

لا يبقى إلّا:

صخبُ الخطوة

وضجيجُ القدْ...

إن مرَّت في الشَّارِع روزا

والثَّغرُ كجرحٍ ينزف شهدْ

والوجهُ أجوجٌ

بملامحِ طفلٍ

لم يُفطمْ بعدْ..

ينسى

أنْ يجلدَ في الشارِعِ

أكتافَ الغرباءِ البردْ..

وبوجهِ الفقراءِ جميعِهمُ

يبتسمُ الغدْ.

يا روزا

في المقهى رجلٌ

أدمنَهُ موتُهُ

مذْ فقدَ بلادَهْ..

رجلٌ..عيناكِ أيا روزا

لـمَّا تلمحْه بأسمالِه

يختالُ أمامَ السّادةْ..

ويثرثرُ بينهمُ

عن أحزانِهِ كالعادةْ..

رجلٌ ملَّتهُ الأوراقُ

وأنْهكَ قهوتَه وسهادَهْ..

مازال شريداً في الطّرقاتِ

وعيناك سريرٌ ووسادةْ

***

حلب /1999

إلى رياض

دخِّن...

ما تدخينك إلا موتٌ

تشتاق إليه.

دخِّن...

لا تقلق ستموت قريباً،

وسيبحث عزرائيل عنِ امرأةٍ

من قلبك ينزعها؛

كي يستكمل موتك

لن يلفي إلا أعقابَ عذارى،

وطناً منفضة...

أو بعض رفاقْ:

شعراء..

جنوداً..

وسكارى...

وقصائدَ لـمّا تحملها الأوراقْ.

وستبكيك تخومُ الوطن الأحمقْ

الجردُ..

التلَّةُ..

والخندقْ.

قممٌ بيضاء تطلُّ على (بشرّي)

وطريقُ كنيسةْ

أشموعك فيها مازالت تحرقْ؟

شطآنُ المتوسط عند طرابلْسَ يغازلها

ويعربد فيه الشبق الأزرقْ

ومهاجعُ عسكرْ..

وحكاياتْ...

واهٍ

ماتْ...

– **«سنهاجمهم**
جهزْ نار البارودة
ولنتقدم
وبعون الله سنسحقهم
وبإذنه عزّ وجل سنرجع
لا تنسَ الليلة موعدنا..
في الخيمة خمس قنان..
أو ماذا كنت تسميها؟»

– **خمس دنان؟**

– «في الخيمة خمس دنان تنتظر»

هل تذكر هذا؟

هل تتذكرْ؟

هل يتذكر في القبر الأمواتْ؟

أسداً كنتَ.. وكنتُ رفيقك

في الخندق يجمعنا بارودٌ ورصاص..

يجمعنا في الخيمة كأسٌ..

«كعبك أبيض

في صحة وضحةْ»

يغضب (متعبْ)،

ويهمُّ بضربك.. لولا أن نتدخل

«عفواً يا متعب، إِنّي أمزح لا أكثرْ»

وتقبِّل رأسه، شاربه، خدّيه، وتهتف فيه:

«انسَ أيا متعبْ،

دعنا ننسى، دعنا نسكرْ»

تدنو من باب الخيمة،

ترنو لخيام أخرى..

تخفق فيها الريح،

فتبدو في العتمة غرباناً تتأهب للطيران..

تنوس مصابيحٌ شاحبةٌ فيها،

تعبق بالبارود،

ورائحة الآباط،

و(أبواط) جنودٍ، هدَّهم التعب فناموا...

تتنهد:

«آهٍ...

دعنا ننسى أنَّا عسكرْ»

تلتفت إلينا، تلمع عيناك

وترفع كأسك ثانيةً:

«في صحَّة... وضحةْ»

وتلوذ فراراً...

تتركنا في الخيمة نضحكْ...

كيف سأخبرهم عنك

وعن شدَّة إعجابك بالـ (آر.بي.جي)؟

عن رشَّاشك؟

عن وابل نارك حين خرجت إليهم

تُمطر سجِّيلك، تزأر فيهم:

«الويل لكم يا أبناء الـ.....»؟

أسداً كنتَ..

أمامك فرّ كماةٌ بقلوبٍ مذعورةْ

يا بطلاً قتلته الطرطورةْ[1]..

طرطورةْ!

كيف لها أن تقتل ليثاً مغواراً هو أنتْ؟!

رائحة القهوة

«أصبحت على خيرٍ. هاتِ سكارة[2]»

فيروز تغني عن يارا

يارا.... وضفائر مرسيلا..

والكذبة أكبر من أن أكملها...

والشمس تُقبِّل في بشرّي برج كنيسةْ

دكَّت أعلاه قذيفةْ...

---

[1]- الطرطورة: مركبة نارية ذات ثلاث عجلات، تشبه التوكتوك في مصر.

[2]- سيجارة، كما تنطق في المحكية الشامية.

أصبحت على بنٍّ، هاكَ سكارة،

هاتِ القهوة...

لندخن..

كنَّا نهوى التَّدخين،

و(قرقعة المتّة[1]) كلَّ مساء

وندخِّن أثناء الشَّايْ

وبلالٌ يحملنا إذ ينفخ في نايْ

فوق البارود.. وآلات الموت

يذكِّرنا.. أنَّا كنَّا يوماً كالباقين

أن كان لنا بيتٌ،وزقاق، ورفاقٌ...

– «وفتاةٌ تهوانا»

– لكنِّي مازلت إلى الآن بلا امرأةٍ

---

[1]مشروب ساخن ، ينتشر في مناطق عديدة في سوريا ولبنان.

– «ولماذا؟»

– لا أدري يا صاح

اتركنا وبلالاً ومساءَ بشرِّي

فبشرّي كملنديْ

إلا أن بشرِّي ليست بلدي

و ملندي مازالت منفايْ.

– «لا تقلق يوماً ستجيء،لا بدَّ ستأتي»

– وسأعدو كالطفل إليها..

وسأبكي في حضرتها..

حتَّى أوحل منها الصدر،

وخندقه العاطرْ.

– «وحلٌ!

خندقْ!

سحقاً...

أهي امرأةٌ

أم جبهة حربٍ في جوٍّ ماطرْ؟!»

– لا فرق لديْ

ما الحبُّ سوى معركةٍ

يغشاها القلبْ

هذا الجنديْ

كي يُعطي معنىً لشقائه أيام التدريبْ

– «**قد يُقتل!**»

– **قدْ...**

لكن سيموت شهيداً..

– «**عافاك، صحيحٌ،**

فالمرء يقاتل من أجل اثنينْ»

– **من أجل بلادهْ..**

ولأجل امرأة يهواها..

– «**نعمٌ. وأنا من أجل بلادي**

مازلت أقاتلْ

ولأجل امرأةٍ سأقاتل في الغدْ»

– **امرأة لا شبه لها**

هي غير نساء العالم

في عينيها يقبع وطني،

أمي، وأبي، أهلي، والصحب

– «**تهواني... أعبدها..**»

– أحملها بين الكفَّينْ،

أتوضأ بالنور الطافح من خدِّيها

وأصلِّي فوق ذراعيها..

– «وسأبني بيتاً..

وسننجب طفلاً يشبهني

حتماً يشبهني..

لا يشبه جاري.

سأسمِّيهِ على اسم أبي؛

كي أشتمه صباحَ مساء»

وكنَّا نضحك..

نضحك... نضحك

كقراصنةٍ في ميناء،

وكقطَّاع طريق في كهفٍ،

كلصوصٍ جمعتهم حانةْ،

وكباقي القتلةْ.

– «سألاعبه..

سأدرّبه..وسألعن من خلّفه؛

كي لا يتفاجأ، أو يُصدم

إن قادته الأقدار

كما قادت من قبلُ أباه

إلى (قوّات رجال الموتْ)»

– قد لا يحدث هذا!

– «يكفيني أن يرقد

كالميّت من تعبٍ ليلاً

حين سأحمل أمَّه بين ذراعيّ

لأطير بها»

– سأطير بها

فوق البؤس وأحزان الفقراءْ

فوق مآذن هذي الأرض

وأبراج كنائسها،

وسأطويها تحت جناحي؛

كي أخفيها عن عين الحزن
وأمنع عنها هم الدنيا.

آهٍ...

هل تذكر هذا أرياض؟

أم تُمسح ذاكرة الأمواتْ؟

– «أتصارعني؟»
والبؤس علا وجهكْ،

وتدلَّت تلك الشفة السفلى، أكتم ضحكي..

– ولماذا؟
– «لأكسّر رأسك.. أو تكسر رأسي؛ علِّي أرتاحْ»
– حسناً.. جرِّب .. لأهشِّم في صدرك
هذي المرَّة كلَّ الأضلاعْ.
...لا تضحكُ كالعادة؟!

لا تخبر أغرارَ المهجع عن

يوم تلاقينا قرب الصهريج

هنالك حيث تبادلنا أولى اللَّكمات..

وكيف تعثرت أمام ابن المحظوظة هذا

وتشير إليْ...؟!

- **ما بك؟ اِجلس..**
- **«احكي نكتةْ»**
- **أبشر.. لك هذا بل عشر نكاتْ.**

حسناً.. اضحك يا ابن الكلبْ.

ولدى شتمك تضحك أكثرْ...

ما زلت وحيداً

فانبش عنك تراب القبر..

تعالْ..

حلَّفتك بالله تعالْ..

تعال؛ لتنظر كيف تمنَّى الدمع رجالْ

آهٍ.. أرياض...

«تهتزُّ الدنيا؛ إذ تبكي مقل الأبطالْ»

كلَّا..

لا تتعب روحك..

بعد قليلٍ سوف أزورك،

لكن دعني الآن صديقي

أقعي منتظراً شيئاً ما

يشبه طرطورةْ

***

الملند/2000

الجنود

الجنود هنا..

لا كما

سوف يبدون يوماً

على شاشة السينما

عندما سيجسِّد أدوارَهم ..

غيرُهم !

هم هنا متعبونْ.

الجنود القساة

متى يخرجونْ

من ثياب العروض، أو الكرنفالْ

من ثياب القتالْ

يرجعون أناساً كما الآخرين

يحبّون..

يبكون..

أو يضحكونْ؟!

والجنود أناسٌ

متى يدخلون الحذاءَ الطويل،

وفي بزَّة الحرب

يغدون آلات قتل

تقوم

تسير

تدوس الزناد

تُميت

تموت...

متى شاء ساداتها الملهمونْ.

***

الملند/2000

قبيل مقتل البدوي

أهواك.. لكن لن أقولْ

الحبُّ إذ نخفيه يسمو؛

فالزهر بذرٌ حين ينمو

لابدَّ أن يلقى الذبولْ.

يا أيُّها الفجر الطفوليُّ الخجولْ،

إنّي هنا ليل الخطيئة، والمواخير الكئيبة

إنَّني غسق الأفولْ..

فلتسكبي في سجن روحي

ذلك النورَ الطليقَ، وبرعمي فيّ الدماء،

وثم مدّي من زهور اللوز جسراً

فوق أوراق الخريف،

فإنَّني ما زلت أمضي تحت أمطار الشتاء..

لي خطوةٌ فوق الرصيف

كأنَّها ظعن الأحبَّة والحداءْ.

يا أيُّها البدوي فيَّ

قل لي لماذا لم تمت؟

آهٍ أجبني..

يوم داهمني العسسْ

إذ أسندوني للجدار،

وأسقطوني للقرار..

سدُّوا فمي بالنعل لـمّا

طالبوني بالخرسْ.

ومضت سواها؛ كي تدوس

قصيدتي

تلك التي..

لحبيبتي

كلُّ البنادق صوبوها:

للكثيب أطلُّ منه على المضارب،

للحبيبة،

للسعفْ،

ولكلِّ أيفاعي العليّةِ..

للتلاع..

وللنجاد..

وللفرسْ.

وبرغم ذلك لم تمت؟!

قل لي.. بربك كيف آهٍ أقتلكْ؟

يا أيُّها البدوي في صدري.. كفى

فالنخل فيما ليس صحراءً غريبْ.

يا أيُّها الجمل الشموسْ،

يا أنت يا شمس المغيبْ،

أو أيُّها الفجر الذبيحْ،

الليل أمعن في الدروب..

والدرب تمعن في السكوت..

فمتى تكفُّ عن النزيف؟

متى تموتْ؟

حتَّى تريح وتستريح.

لكنَّني..

سأظلُّ أمضي

مثل عزف للبكاء

خطاي تمضي

فوق أحجار الرصيف.

* * *

حلب/2000

أمي

ما زالتْ تُنكرُ

شيبَ اللحيةْ..

وتجاعيدَ الوجهِ الشَّاحب

ومشيبَ قذالي

عينيَّ الْأَمْعَنَ في صمتهما

قهرُ الدَّهر

وعمَّد بنَّهما بالذلْ !

إحناءةَ ظهري

حشرجةَ الأنفاس

سعالي.

لا تبصر

رسمَ نعال السادة فوق أديمٍ

تركت فيه سياطُ الرعب مساحفَها.

أمِّي..

وبُعَيْدَ العشرة من كفيها

يبدأ منفايْ

ويزيد سواداً ليلُ الغربة

لمّا تنأى عن فجر يديها

دربي وخطايْ.

آهٍ... آهْ

فرخُك تاهْ

ما زلت وحيداً يا أمَّاهْ

لكن ما أصعب وحدتَه

من ليس إلهْ!

***

حلب/2001

اللبوة

أرى وجنتيكِ

ربيعاً وفجراً

ووجهاً بهيًّاً أراه النهار..

وثغراً نديًّا كتنّور نار..

يُوزِّع خبزاً،

وجمراً، وخمراً لكلِّ الجياعْ.

أضيئي ليَ الليلَ في مقلتيكِ

عسى يستريح على مرفأ البنِّ

هذا الشراعْ.

أراك...

فيفنى لديَّ الكلام،

ويُخرس حسنُك هذا اليراعْ

فماذا يقول

وهذا الجسدْ

لقلبي المشتَّت بين القوافي

لطيني المشرَّد بين المنافي

أراه البلدْ؟!

خذيني إليك..

صغيراً خذيني..

وسرّاً ضعينيَ..

بين الحرير، وصدرٍ نَهَدْ

بل هنالك ما بين نهدين؛

إنَّ الحريرَ جوارَ رخامِكِ حبلُ المسدْ،

وكلُّ النساء أمامك أُتنٌ

وأنت الوحيدة

أنثى الأسدْ.

***

حلب/2001

نجوى

وتحملني القصيدة صوب منفاي الجديدْ؛

لأعلن غربة

للروحِ في طيني

وطينٍ عن ذراعيها بعيدْ..

«ذراعي عيطلٍ أدماء بكرٍ

هجان اللون لم تقرأ جنينا

أبا هندٍ فلا تعجل علينا...»

أبا هندٍ...؟!

.....

وربي.. تلك صحراءٌ قد اغتصبت؛

فماتت

عندما سالت بكارتها على الكثبان نفطاً أسودا

هيهات ترجع

سوف تبقى يا فؤادي

مبعداً ومشردا

في كل منفى يا شقيٌّ مرددا:

«ذهب الذين أحبهم ...»

وأنا الوحيد..

أنا الوحيد..

أنا الوحيد.. ولست رباً

كي أسرَّ بوحدتي.

وجعلتني

من دون صاحبةٍ

ولا حتّى ولدْ!

وبسطت أرضك فوق ماءٍ قد جمدْ

ثم السماء رفعتها

-كي لا تُطال-

بلا عمدْ؟

وجعلت سبعاً تحتنا؟

وجعلت سبعاً فوقنا؟

أثلاثَ عشرةَ فاصلاتٌ

بين روحي والجسدْ؟!

***

حلب/ 2001

على وتر البن

مَنْ شربَ اللَّيلَ وأبقاني

في قعرِ الفنجان يخاتلني قمرٌ وحشيٌّ

في أدغال الغيم مقيم؟!

يا امرأةً..

من آهات الأرض الحبلى

بأنين الحبق الظمآن

لقطرة مسكٍ، إبطُك ينضحها

ما زلنا نحترف الكتمان فقولي

حتَّام سيبقى نعناع البوح أسيراً

في مقلٍ أمعن فيها الصمت

لتصبغ موتي بالبنِّيِّ؟!

والبنُّ حصانٌ عربيٌّ

يحملني حتى الصحراء، ويتركني

بدوياً أرعى قطعان السَّادة

منتظراً معركةً تقتلني

أو تجعلني حرَّاً أستأهل حسناءً في الحيِّ

نوق النعمان لها مهرٌ

أو أن أصرع في وادٍ أسداً في البأس أُحاكيه..

يتركني

في فيء نخيل الإخوان الأنصار وحيداً

أبكي مكَّة

حتَّى تتدفق كلمات الله أريجاً من فِي نبيٍّ:

أن «أذِنَ الله» لنا

من أُخرجنا منها ظلماً..

أذن الله؟!...

والله نصير المظلومينْ...

تترقرق في عينيَّ دموعي

تتحسَّس كفِّي مقبضَ سيفي

أمتلئ زئيراً يهتف:

«مكَّـة..

مـكَّةُ لـي»

والبنُّ أكفٌّ

لـمّا تطويني السعلة

تفتحني فتح المصحفْ.

والبنُّ حزينٌ.. منِّي يدنو..

يرنو

لحسامٍ يتنهَّد في ركن المتحفْ.

والبنُّ أثيرٌ أمزجُهُ

بدخان التبغ

وعبقِ دموعٍ مدَّخرةْ؛

لأصوغ امرأةً

أرفعُها في وجهِ الزمنِ السَّافلِ

سيفاً.. حرفاً؛ لأدافع عن نفسي

تنقذُني من نظرةِ كلِّ امرأةٍ تنأى نأيَ أتانٍ

تعرفُ بالفطرةِ أنَّ الصدَّ سيغري أكثر

جحشاً طافَ به الشبق الجحشيُّ...

لكن..

من قال بأِنِّي كالباقين

وأنَّ أديمِيَ من طينٍ دَنِس؟!

تفهم أِنِّي ترتيلٌ همسي،

ووقوفي في محراب النهدين صلاةٌ لا يُتقنُها

إلاَّ من أُرسلَ للعذراء؛

لينفخَ فيها روحَ القدسِ.

والبنُّ عيونٌ تُنكرُني

آهٍ تُنكرُني،

وبقايا أعقاب لفافاتي الخمسينْ

كلّ صباحٍ أُحصيها؛ كي أبدأَ خمسيني الأُخرى

مازالتْ تشهدُ أنِّي

بأنينِ النعناعِ الخائفِ في مقلٍ احترفَتْ قتليَ

كلفٌ..

مجنونٌ..

جنديٌّ ينتظرُ النعناعَ سيهمسُ يوماً:

«قم.. حربُ خلاصِكَ قد بدأت»

آهٍ ... لا أعرف

كم خمسين سعالاً أصفر بعد

سيسقط عن حنجرتي؛ ليمرَّ خريفُ الكتمانْ

لكنِّي خبَّأتك في صدري

برعمَ عشق، لا بدَّ، سيفضحني

في آذارِ البوحِ ربيعاً

تتفتَّحُ فيهِ الأسرارُ قصائدَ وجراحْ

برعمَ شعرٍ،لا بدَّ، سينكأ هذا الصمتَ؛

ليُشرقَ بعدك يا ليلَ الكِتمانِ البنِّي صباحْ

***

حلب/2001

الغريب

مازلتَ تُسطّرُ في الأوراقِ كلاماً

يعشقه الفقراءْ

وتخبُّ على الطرقاتِ وحيداً

تمضي..

خطواتكَ لا تستنشقُ كلَّ مسافتها

اختنقتْ

فوق بلاطِ رصيفٍ

وشوارعِ إسفلتٍ صمَّاءْ

هيهات سينعشها

غيرُ نسيمٍ

مرَّ على كثبانٍ بلَّلها القطر

ونهدٍ بدويٍّ

عطَّرَ طلَّ الصبح

وفجراً

سالَ على سعفٍ وخباءْ.

مازلتَ أسيراً

كلهيبِ الخمرةِ في دنٍّ

آهٍ كمْ ضاقَ عليها الدنُّ

وكمْ ضاقَ عليكَ الطينُ

أيا بعضَ سماءٍ سابعةٍ

نُفِيَتْ

في طين منفيٍّ في أرضٍ

من سابعِ أرضٍ فيها قدْ جاءْ.

ما زلتَ شريداً

منذ هجرت الفردوس، وقطعاناً

يكفيها كي تقفز من فرحٍ

أن ترد الماءْ

ما أسعدهمْ!

فلهمْ طوبى..و لكَ المنفى

لتظلَّ غريباً في الطرقاتِ

تُرَتِّلُ قرآنَ الغرباءْ.

كيفَ نجوتَ منَ الفردوسِ بلا امرأةٍ؟!

بوركتَ ولكنْ

أتراكَ نسيتَ

بأنَّكَ لا بدَّ ستحتاجُ إلى صدرٍ يُؤْويكْ؟

وتريدُ امرأةً

فصقيعُ دروبِ المنفى

ما انفكَّ يُناديكَ

بأنَّ امرأةً لا غيرَ ستكفيكْ

تكفيك

فشمسٌ واحدةٌ تكفي؛

ليكون نهار

وشرارةُ نار

كافيةٌ؛ كي تحرقَ ما في الدنيا

حين يؤجِّجُ

كفلٌ في دربكَ يتمجمجُ

بين ضلوعكَ داحسَ والغبراءْ.

وتردِّدُ زوراً بين الصحبِ

بأنَّ نساءَ الدنيا لا تعنيكْ؟!

أخبرني.. قلْ لي

من يُنجيكْ

حينَ تهبّ امرأةٌ فيكْ

مِنْ خفقِ فؤادكَ كبيارق جيشٍ مهزومْ؟!

مَنْ يُنجي القلبَ المكلومْ

حين سينكأُ كلَّ جراحِه

رنوُ امرأةٍ سيداهمه

رنـَّة خلخالٍ..

وصليلاً..

وصهيلاً..

وحداءْ؟!

آهٍ..

مَنْ يحمي قلبكَ؟

من يحميكْ؟

إِنْ أيقظَ ذاك الرنو الدافئُ فيكْ

ثانيةً تلك الصحراءْ

***

حلب/2002

طلع الصباح

جرحٌ تنفَّس في الأفقْ

وتمطّت الشرف الفقيرة والطرقْ..

تلك النوافذ مغمضةْ

الصبح يقرعها؛ ليشرب قهوتهْ

من مقلة فيها الكرى مازال يستهوي الغرقْ،

من مقلة الحسناء

تغفو في الحرير كزهرةٍ بيضاء تعبق بالألقْ..

طلع الصباحْ

والكون قد خلع الدجى

ألقى العباءة في غدائرها الأثيثة، واستراحْ

شفقاً جريحاً فوق ناهدها الصغير المرمريْ

تلك التي

يوماً ستأتي للمقاتل بعد أن أضحى

كياناً من دمامل لفّها جلدُ الحذاء العسكريْ،

أو بزّةً، أسمالُها قد خبَّأت جسداً تمزّقه الجراحْ

هذا المحارب ذا الذي قد ملَّ من صَدِئ السلاحْ

كأريج معركة الخلاص يزفّه همسُ الرياحْ...

الريح تعبث بالورقْ

والليل يكنسه الشفقْ

الليل يمضي صامتاً صمتي إذا طلع الصباحْ..

طلع الصباح وما غفوت كعادتي

وشتمت صنبوراً زعمت بأنّه

قد أقلقت نومي العسيرَ دموعُه

وبأنّه كان السببْ

فيما اعتراني من أرقْ

وخرجت أضرب في الطريق

وساعتي مثلي تثاءب عقرباها

ثم سارا متعبين كخطوتي

وشتمت عقربها الصغير المضطربْ

سحقاً له، هيهات يشكو من تعبْ!

ما انفك يسرق من حياتي

ما ينقِّط من ثوان في قلقْ

ويدور يقفز

ليس يأبه

لا يهمُّه ما سرقْ.

ماذا يحوّمِ في خيالك

أيها النائي بعيداً عن حقولك.. عن ذراك،

وعن حواريك القديمة..

عن طفولتك الأليمة.. عن هناكْ؟

أهي الملند؟

وما الملند؟

– هي الدروبُ إلى السماءْ
آهاتُ أرزٍ نازفٍ
في السفح معْ نزف المساءْ..
هي ياسمينٌ
يشرئب إلى الأزقَّة خائفاً،

من خلف أسوار البيوتْ

حبقٌ بدمع النهد ترويه العذارى

لن يموتْ

أبداً أسيراً خلف شبَّاكٍ عتيقْ

حبقٌ يهرِّب عطرَه وجداً يفرُّ إلى الطريقْ

وجداً تقاسمه الرفاق

هناك في ذاك الزقاقْ.

ومَلَنْدُ زيتونٌ وتينْ

ومَلَنْدُ عيناها وويلي منهما

من صمت بنيّ اللتين

حكى الملندَ ترابَها

وشتاؤُها قد جاءها بعد التفرق

وارتمى فوق النواهد باكياً

ليبثَّ شوقَه راعدا..

عيناكِ والبلدِ الأمينْ

لي فيهما آه بدا..

والعمر مرَّ ولا أزال على الدروب مشردا..

وخطاكِ في بالي مدى

يا مَنْ يبعثر كعبُها العالي

وريدي في الدروب قصائدا..

يا من خُلقتُ؛ لكي أموت

إذا اشتهتْ يوماً ترى

رجلاً يجربه الردى...

يا طفلةً خدشت أظافرها المدى

فانثال فجرٌ فوق دربٍ

قد توضأ بالندى

في ضفتيها الياسمينْ

قولي متى – أوَّاه منك– ستفهمينْ

حزنَ الذي قد أمّ وجهك

قد أتى

أسداً جريحاً جاء يبحث عن عرينْ؟

يا أنت يا هذا النحيلْ

حتَّام تضرب في الدروب

خطاك ترسف بالأثير وبالهواءْ؟!

تمشي حزيناً متعبا

تمضي وحيداً أحدبا

– كالسيف أحلم بالصليل
أو أشتهي أن يُمسح النصلُ الصقيلْ
بقميصِ من خلَّيته
«جَزَرَ السباع ينشنه...»
أو لبدةٍ شقراءَ تنضح بالأنينِ
بقيَّةِ الهمس الأخير من الزئير، وبالدماءْ....
يكفيك ما هذا الهراءْ؟!

تلك الصحارى لن تعود

وسوف تبقى فوق إسفلت الطريق

وتحت أزرق ذي السماءْ

أبداً تنادي إنَّما سيضيع صوتك

والصدى، إن عاد، عاد مرددا:

«مات الذي قد يستجيب لذا النداءْ».

يا أيُّها المنسيُّ

بين قبَّعةٍ من الصوف المزركش والحذاءْ

يا أيها المنفي في جسد سيفنيه

المبيتُ على الطوى..

نارُ السجائر،

وانتظارك دون جدوى للقوافي والبكاءْ.

قلبٌ يدقُّ كقبضة الشحَّاد من بابٍ لبابْ

متكاسلَ الخفقات يدفع في العروق الشاحبات

دماء نسرٍ قد توارى خلف أقنعة الذبابْ

قلبٌ حزينْ...

عينان غائرتان في وجه كئيب

قد تقنَّع بالسكوتْ

وفمٌ صموتْ

قد غلَّفته أكفُّ سادته

ولفَّت فوقه صفعاتُها كفناً كبيت العنكبوتْ

عينان ملؤهما الحنينْ

بنِّيهما آهِ اهترأْ

عينان ملؤهما الأنينْ

ماذا تراه قد اختبأْ

في مقلتيك

أأيها المشغول دوماً في مراقبة الدروب

ومَن عليها يعبرون مطأطئين ومسرعينْ

نهراً من الأسمال يجري، ليس يدري

في تدفقه: لماذا منذ آلاف السنينْ

يسقي الضفاف

ولا تردُّ له سوى

صُفْرَ الوريقات التي

تُعميه عن عورات أشجارٍ تعرَّت

كي تمارس عهرها في الضفتينْ؟!

– ذا ليس شأني فاتركوني

لستُ أمطاراً لأهطل

لست ثلجاً كي أذوب

عساه يغضب ذلك النهر المعذب

ذلك الماء المهذب

لست إلا شاعراً

والشعر

–عفواً يا الذي مازلت آهٍ سيدي–

هل كنتَ إلَّا محض ثرثرةٍ وحكيٍ

منذ أن بدأ الزمانْ؟

ذا ليس شأني فاتركوني ههنا

أقعي وحيداً صامتاً كالهرِّ

خلف لفافة التبغ الرخيصة والدخانْ

أرجو السلامة

والنجاة

وقوت يومي

والأمانْ

في السرِّ أتلو حكمةً أُورثتها

عن ألف جدٍّ جرَّبوا

طعم الخوازيق المقدسة العتيقة والسياطْ

تحت السيوف وفوق جلد النطع

آهٍ ردَّدوا:

«إياك من أن يضرب العنق اللسانْ

إياك من أن يضرب العنق اللسانْ

إياك من أن يضرب العنق اللسانْ»

****

حلب/2003

أسود وأبيض

قد أنبأتنا

كلُّ أسفار البدايةِ

أنَّها سوداءُ كانت

مثل عتمةِ بذرةٍ

هو أسودٌ

هو شبه أبيضَ في النهايةِ

ضدُّ ذاته في البدايةِ

أسودٌ

هو ذاته ونقيضه...

كم في بياض سواده

أوفي سواد بياضه

تفنى الحياةُ وربَّما

يحيا المماتُ وربَّما

أو ربَّما

هيهات ندري نحن من

لا نستطيع تذكُّر الساعاتِ

في ديجور ذاك الرحْم

عتمته المبلَّلةِ الحنونةِ، إنّما

حتماً سندري عندما

يوماً نُحدِّق خائفين بساطع

مازال يُبهر أعينَ الموتى ويملؤها بياضاً

ربمَّا كان الأخيرَ

وربمَّا

أو ربمَّا

هيهات ندري

منذ السواد هناك في حلو الرطبْ

أو من سوادٍ قارسٍ في سطل سوسٍ

كان يغلي من برودته ويصفرُّ الحببْ

في سفرةِ الإفطارِ.. في رمضانَ

إذْ كنَّا صغاراً

نجمع الحسناتِ خوفاً من جهنَّم واللهبْ

أو من بساطة أسودٍ

في ذلك الخطِّ الطُّفوليّ

الذي مازال فوق دفاتري تلك القديمةِ

أو على جدران مدرستي وصفِّي:

(سوريا يا حبيبتي)

خُطّت هناك بفحم مدفأة الحطبْ

حتّى بياضٍ غامضٍ

مثل الضباب على الورقْ

وإلى بياضٍ لاسعٍ

كالنَّار في كأس العرقْ

أتراك تدري؟

أيُّها الوقتُ الذي

جعل المدى عينيّ مفترسٍ يُخاتلُ خطوتي

يا أيَّها الوقتُ الذي ملأ الأثير

ويستعدُّ لقفزةٍ

فرحاً غبياً

قفْز ثانيةٍ تُهرول صوب ماضينا

أجبْ..

أتراك تدري

ما الذي قد كنت قبلكْ؟

هي رحلتي في غربةٍ

تمتدُّ من كفٍّ لقابلةٍ عجوزٍ أخرجتني باكياً

أتراه أوجعني الهواء أم الضياءْ؟

أم أنَّني لم أحتملْ

هذا المزيجَ الفجَّ للألوان في الأشياءْ؟

لا شيء يشبه أسوداً قد كنت فيه

وهذه الألوان

ويلي

سوف يبرمها الزمان بقرصِ ساعته؛

لتغدو شبه أبيض أتَّقيهْ

من عتمة الرَّحم الحنونة

من سواد بدايتي

حتَّى بياضك يا صغيرة

ألف أنثى

ألف منفى

ألف أرض باردةْ

نقّلت فيها خطوتي

وتبدلت فيها

الحقائب،

والسَّجائر،

والدَّفاتر،

والغرفْ..

لكنَّما الأحزان آهٍ واحدةْ

***

حلب/2004

السيوف

السيوف..

ليست اليوم

أكثرَ من قطعةٍ من حديدٍ

تلألأُ

فوق حديد الرفوفْ

بين شتَّى صنوف المسابح

بين عتيق الحليّ

الكراسي..

المشاكي،

وبين زخارف تلك العلبْ

علبٍ من خشبْ..

لفَّها الصَّمتُ

في غمدِها القبرِ

تبكي ظباها

الزمانَ التليد الجميلْ

يوم كانت كواكب

تسطع في عتمة النقع

بين الزئير،

وفوق الصهيلْ

إنَّما بُحَّ في حدِّها اليوم لونُ الصليلْ.

عُلِّقتْ في المضافات

تغدو ابتسامةَ سخريةٍ مائلةْ

وهي تُصغي لهرج الأحاديث بين الضيوفْ

الضيوفِ العربْ

السيوفُ

السيوفْ

***

الملند/2004

غنِّ

لم نمت بعد،

لا...

بعد لم ينطفئْ

في دجى صدرنا المهترئْ

يا رفيقي

بصيصُ النشيدْ...

ومازال عندي وعندك

متسع للغناء

فغنِّ...

غنِّ آخر من تركتك

على الأرض تعوِّل مثل الوليدْ

والتي حضّرت نصلها،

ثم راحت تخاتل فيك الوريدْ

غنِّ عكازك المعدني؛

ليورق بالورد فيه الحديدْ

غنِّ درباً..

ستشهر في وجهه

يا صديقي

الحصى

والسقوطَ الجديدْ

غنِّ مَنْ سافروا

كلّ من حاصروا القلب

آهٍ...

وهم في البعيد

البعيد البعيدْ.

***

حلب / 2004

هل

هل كلَّما سارت

يؤنِّب خصرها الدنيا،

يلقِّن كلَّ هذا الكون درساً في الجمالْ

فتئن دربٌ كلّما فيها خطاها رُتّلت

وتميد بالمارِّين من فرط الدلالْ؟

وعلى شغاف القلب هاتيك الخطى

«يا مرحباً بالجرح تفتحه خطاك»

القلبُ قالْ.

هل كلَّما اقتحم الأثيرَ أمامُها؟

نهداً يهدِّد بالمماتْ

وافترَّ عن خطواتها ثغرُ الردى

واجتاح نقرُ حذائها

مهجَ الصناديد الكُماةْ

وتساقط الأبطال خرُّوا سُجَّدا

اِكتظَّ بالخصب المدى،

وتناثرت في إثرها قطع الرياض

قصائداً خضراء تُنشدها الحياةْ؟!

هل يا تراك مررت في بال البسيطة يوم كانت طفلةً؟

كم هالها طول انتظارك!

فاستشاطت، ثم شقت برزخاً

حتَّى تباعد قارتين معدَّة

في (الغاب[1]) بيتكم الذي

من أجل أن يتلكأ العاصيُّ[2] عنده قد عصى

عاداتِ أنهارِ البلادِ وراحَ يقترفُ الشمالْ؟

آهٍ على قلبٍ عصاني في الهوى

واختارَ أنْ يبقى كِنَاسَك يا غزالْ!

***

حلب/2005

---

[1]- سهل الغاب.

2- نهر العاصي وهو النهر الوحيد في الشام الذي يتجه من الجنوب إلى الشمال ، وكان يغمر الغاب مشكلاً مستنقعاً قبل تجفيفه.

أول الكلمات الأخيرة

من أين أبدأ؟!

كلُّ شيءٍ جاهزٌ...

ومعلَّبٌ...

ومناسبٌ؛

كي يُسْتَمَرَّ سكوتُنا.

من أين أبدأ؟

والحياة قصيرةٌ

وقصيدةٌ

هيهات نفصل

بين أسودِ حبرِها، وبياضِ صفحتِها

هل كلُّ شيءٍ قابعٌ في ضدّهِ؟

هيهاتَ...

كلاَّ...

كلُّ شيءٍ واحدٌ

مهما تنازعتِ الطَّوائف

حولَ تفسيرِ الخريطةْ

مهما استمرَّت حربُهمْ

في شرحِ أقوالِ النَّبيّين البسيطةْ

هل همسُ جرحِ الفجرِ أحلى

من نزيفِ الوردِ في شفقِ المساءِ؟

كلاهما موتٌ جميلٌ فيه تُختزلُ الحياةُ

وذاك أمرٌ لا تراه عيوننا

العمياءُ بالطينِ المؤقَّت

كلُّ شيءٍ واحدٌ

إن نحن نُبصرُهُ بعين القلب

فافتحْ يا فؤادي مقلتيك

على الكثيرِ الواحدِ المنبثِّ فينا

إن أردتَ لنا النجاةَ.

لأحبَّ غصناً واحداً

سأحبُّ أشجارَ الحديقةِ كلَّها

وأسبُّ بحراً كاملاً

إنْ علقمتْ ظمأي إليه قطرةٌ منه

وحسبي

أن أسيرَ إلى النهاية

رافعاً رأسي لأفقٍ

سوف يجرحُهُ الهلالُ

لكي أردِّد ما حفظته عن نبيٍّ:

«واحدٌ ربِّي وربُّك»

واحدٌ نبضي وضَوْؤُك

أيُّها القمرُ الذي مازالَ يشبهُ وجهَ محبوباتِنا

حتّام ترحلُ في جوانحِنا

كسيفٍ من ضبابٍ

قد تكاثفَ في غياهبِك العميقةْ؟

يا أيُّها النَّهد الحليبيُّ المعلَّقُ فوقَ ليلِ فطامِنا

بينَ اثنتينِ نسيرُ رحلتَنا:

مَن أنجبتنا أمس للموتِ الذي

مازالَ ينفقُنا على مهلٍ هنا وهناك

مبتسماً بسخريةٍ

ومَنْ حتماً ستحرقنا؛

لنخرج من رماد الحبِّ عنقاءً

تُجدِّدُها القصائدُ كلّما احترقت بنا...

هذي قصائدُنا

سنبقى حيثما شاءتْ نرتِّلها، ونبكي؛

كي يغيم القاعُ في بحرٍ توسَّد موجَه ليلٌ

تعذِّبه الصغيرةُ كلَّما انصرفتْ

مقلِّبةً على أَرِقِ الحريرِ

قصيدةَ الجسد المحاصر

بالدُّجى الموجوعِ من قمرٍ

سينشبُ في سوادِهِ هالةً بيضاء...

يُوجعني حليبُك...

يا صغيرة

عانقيني..

غمّسي في جرح هذي الرُّوح ثغرك

قبّليني..

أنجبيني

مرَّةً أخرى؛ لأعلو واثقاً متن الصليبِ

مقهقهاً،

ومباركاً كفّيه جلاَّدي الحبيبْ...

في مقلتيكِ تصالحَتْ كلُّ الطَّوائف

واستراحَ اللهُ من حربِ الشُّعوبِ عليه...

بُنّيهما بابُ القيامة

فادفنيني فيهما إن أنزلوني

عن صليبِ الشعرِ ميتاً

وافتحي بابَ السماءِ

لمن أتاكِ أيا صغيرةُ

خائفاً من هولها:

«اقـرأ»

صارخاً

في سفح منفاه المصوّب نحو بيتك:

زمّليني.

زمّليني

زمّليني

***

حلب/2005

باختصار

منذ أن لفّنا الحبُّ في شرنقةْ

بيننا راحَ يُجدل حبلُ الهوى

سوفَ أجعلُ أرجوحةً منه يوماً لها

بينما حلوتي..

تشتهي أن تعدّه لي مشنقةْ!

***

دمشق/ 2006

البنات

البنات سنونو

يحوّم...

يجرحُ حولَ مآذنِ روحي

سكوتَ الأصيلْ...

حافياتٍ

يلجْنَك يا قلبُ

يُجفلْنَ فيك حماماً يفرُّ

على قبَّةٍ يستقرُّ؛

ليرنو إليهنَّ

يعبرْنَ...

يغسلن مرمرَ أقدامهنَّ

بما رانَ فوقَ بلاطِك

من صلواتِ الهديلْ.

هنَّ صمتُ الصحارى

إذا شعَّ في عتمةِ الصدرِ فجراً

تعتَّق في دنِّ تلكَ البوادي القديمة،

بنٌّ يُرقِّص مهباجَ قلبي،

وهالٌ يحزُّ على وتر الروح

غصَّاتِ نفسٍ تُشيّع في إثرهنَّ الهوادج...

أنَّاتُ ذاك القريض الذي موسقته:

الأراجيزُ

ضبحُ الخيولِ..

الصهيلُ..

الصليلُ..

النخيلُ..

القطاة...

البنات.. البنات

عروض الحياة.

البناتُ صدى صرخةِ الروحِ

إذْ ألقيت في سجونِ الحمأْ

هنَّ آلامُ طينٍ أفاقَ

على نقصِ ضلعٍ له صارَهُنّ

كأنّي هو الآنَ أرنو

بدهشةِ عينيه

أسألُ عن وصفِهِنَّ...

فما اسمُكِ؟ قولي

إذا لم يُسمّكِ

لا يستحقُّ السجود لهُ

ما هو اسمك؟ ويلي

ويا ويله

إن فشا السرُّ أو شاع هذا النبأْ.

فاقطفيها...

لعلّي أعانق في عاج عريك ضلعي

وبثِّي عطورك فيَّ؛ لأعرفَ

أعراسَ أوَّل طينٍ به دبَّ آدمُ روحاً

ونعرفَ كلَّ الذي لاهَ عنَّا

وعنَّا اختبأْ...

اقطفيها نعِدْ من جديدٍ فصول الحكاية

قومي لتصحيح سفرِ البداية

قومي لنكتبَ سفرَ النجاةْ.

***

دمشق/2006

جودي

دقَّت نواقيسُ الكنيسةِ

عندما قالتْ:

«سأرحل»

فالتفتُّ...

هناك غيمٌ برتقاليٌّ تجمَّع

فوق قمَّة قاسيونْ.

غيمٌ...

مصادفةً تجمَّع في السما

فحذارِ تزعم فِي غدٍ

أنَّ المساءَ أعدَّه

من أجل مشهدِك المكرَّر

منذ أيام الهوادج

واعترفْ

قالت: «سأرحل»

فانتبهتَ لمزحةِ القدرِ الجديدة

إذْ لمحتَ وراء تلك الأجنبية:

خيمةً..

عِيساً تُجهَّز للرحيل ومصعباً

« وسط الديار يسفُّ حبّ الخمخم..

فيها اثنتان وأربعون حلوبةً...

أزف الرحيل ولم تودِّع مهداً...

ودّع هريرة... »

صاح قلبي ضاحكاً

كي لا تزيدَ شماتةُ الأفق الذي

ماانفك ينشد ساخراً:

«هل غادر الشعراء من متردَّم؟!»

يا من تقهقه في المدى عبثاً تحاول...

كلَّما غمّست روحي

في الزّحامات البليدة

دمَّرت حولي الركودَ

وعكَّرت صفوَ الرتابةِ،

وانبرتْ روحي الشريدةُ

تمتطي نيرانَ عنقاءِ القصيدةِ

فاسترحْ..

غيري أنا

عبثاً أحاول أن أكونْ...

غيمٌ تسابقَ نحو مرمى نظرتي

غيمٌ تجمَّع كي أصبَّه

في دنان قصيدتي ؛

ولأجلها شقّ المدينةَ قاسيونْ...

دقّت نواقيسُ الكنيسةِ

فارتمتْ..آهٍ عليَّ وتمتمتْ:

« لكن سأرجع بعد شهرٍ..»

فانتظرْ قمراً غريباً

أشقراً

سيضيء منفاك اكتمالُه في سماك

وربَّما سيصيرُ مأواك الحنونْ

وحذارِ أن تنسى التي

قبل الرَّحيل تأجَّجت

مثل القصيدة

في قريحة شاعرٍ أَلِفَ الجنونْ...

هذا بياضُك صفحةٌ

تاهتْ قوافيَّ العنيدةُ

في غموض ضبابها

وتشرَّدت لغتي الحرونْ...

هيهات تنفعنا اللغاتُ الآن

ليس هناك أبلغُ

من سكوتٍ يستعين

بقبلةٍ عصماء،

يختصر البيانَ حريقُها

ودعي البلاغة.. للعيونْ.

جودي...

ويضطرب السكونْ

في قاع هذا القلب

عودي...

فالروحُ ينقصها ارتجال الموت

بين يدين من عاجٍ؛

ليقترف الحياة قصيدةً

يا عاج ضلعٍ ناقصٍ

عودي...

لتكتمل الضلوع

لعلَّ آدم فيّ يصحو نيِّئاً

ومهيَّأً

لخطيئةٍ أخرى...

ستدكُّ في الأرض الرتابةَ

بانفجارات الظنونْ...

* * *

دمشق/2007

أيوب

أيوب قديماً لم يحتجْ

لم يملك إلّا أن يرفع لله يديه

يسأل فيم قصّر، أو أخطأ، وأساء؟

هل جرّب أيوبُ بردَ دمشقَ بلا امرأةٍ؟

هل خرّش رئتيه عويل (الحمراء)[1]؟!

***

دمشق/2008

[1]ماركة سجائر محلية.

أطلال الأمير

لا شيءَ تخبرُني به المرآة

حين أعودني فيها

كي أطمئنّ على الذي منّي تبقّى

تلك أطلالي..

وقفتُ... لكي أفتّشَ بينها

عن ذلك الولدِ الذي

بالأمسِ كنْتُهُ

ربّما

أو كانني

ما عادتِ الصورُ القديمةُ واضحةْ.

في ذاتِ أمسٍ

أوقفَ الأستاذُ شرحَهُ سورة الشعراء

ناداني: «ألا انفضْ عن ذؤابتِكَ الغبارَ»

فقهقهَ الفتيانُ حولي:

«ذاك شيب»

عربدُوا...

صاحَ: «اخرسوا...»

ودنا قليلاً وانحنى

مسّ الذؤابةَ ثمَّ أنشدَ في هيامٍ:

«عيَّرتْني.....»

وانبرى يحكي لنا

عن فارسٍ حملَ الحمامَ سلامُه

من سجنه بين العلوجِ إلى حلبْ

حلب الأراجيح..

الحدائق..

حافلاتٌ..

زحمةٌ..

غزلُ البناتِ..

بناتُ خالي..

خالتي الثكلى تخبِّئُ دمعها

في غصّةٍ حرَّى،

وتجمعُنا؛ لنأخذ صورةً

بالقربِ من ذاك الأميرِ

جميعُهم نظرُوا إلى جهةِ المصوّر

غيرَ أنّي كنتُ مشغولاً

بتمثالِ الأميرِ وصمتِهِ...

سأكونُ مثلَهُ ذاتَ يومٍ..

فارساً

سيفي لتقطيع الغزاة،

وللحسان قصيدتي

«ويلي عليك

إلامَ تنظرُ يا أُحَيْمَقُ فاغراً شفتيك؟»

صاحَتْ خالتي...

لا شيءَ تخبرُني بهِ المرآةُ إلّا

أنَّ جُلّ العمرِ ولّى

كالهباء، وليس ينقصُني هنا إلّا الربابةْ

معْ قليلٍ من تمارينِ العتابا؛

كي أنوحَ كما يليق بخيبتي

لا شيءَ تخبرُنيه..

لا شيئاً لأخبرها به،

فاليوم عين البارحةْ

سيجارةٌ أخرى، وتخرج جارتي

بجيوشِ زينتِها،

تحاولُ علّها تخفي بقعقةِ التبرُّجِ والحليِّ

عويلَ وحدتِها،

فتنوح فيّ حمامةٌ:

«واجارتا......

واجارتا لو تشعرين ... »

واجارتا ...لوتسمعين أنين هذا الطينِ

آهاتِ الجسدْ..

جسدٍ يعربدُ في سكوتٍ

هاتفاً بالرائحةْ:

لو تعبرينَ أوابدي..

أنقاضَ روحي

جارتاه

ولو مروراً

مثل أية سائحةْ

***

دمشق/2008

في بعدك

في بعدك

آهٍ...

أتقلَّبُ في مشواةِ سريري..

مازالتْ فوقَ الطرفِ الأيمنِ منهُ

آثارُ حروقٍ

خلّفها في العتمة عُرْيُك

....

أغمضُ عيني على جمرِهما

يستيقظُ عِطرُك

أفتحُ عيني، ولا أدري

هل متُّ قليلاً؟

لا صوتَ لِفيروزَ،

لا همسَ لقهوتِكِ التاركةِ على قلبي

ما تركَ المطاطُ صباحاً أسفل خصرِك..

أجمعُ أشياءَك

وأهدِّدُ لا أدري من

أنِّي –واللهِ– سأرميها..

يسبقني قلبي..

يلقي بالصبرِ إلى الشارعْ

ويصيحُ: أحبُّك.

في بعدك

أطرقُ بابَ صديقي وجلا

وألفِّقُ في صُفْرةِ وجهي

ما يتيسَّرُ من فرحٍ

لكن ما إنْ ألمحُ عينيهِ الضاحكتينِ تسائلُ عنك

حتى يُقطع في سُبْحةِ دمعِي خيطُ إبائي

أسقطُ في أحضانِهِ طفلاً وجِلا

أشتاقُ لأمي البدأتْ تسترجعُ منك مساحتَها فيّ

أحتاج أبي؛

كي يصرخ بي

والصفعة تهوي:

كن رجلا.

في بعدك

يتسكَّع فيّ الحزنُ وحيداً

ليلاً ونهارْ

يركلُ في كسلٍ حصواتِ الدَّرْبِ،

ويسحلُ في إثرهِ ظلًّا دبقاً

ويعق غبار سكوت الرُّوحِ بأفٍّ من نارْ،

وأنا

أجلسُ بهدوءٍ

بهدوء...

قنبلةً في الرُّكنِ بلا مسمارْ

في بعدك

أصغي لسكوتِ الهاتفِ

وعويلِ الصمتْ

يثقبُ قلبي خوفٌ طائشْ

يقطرُ نبضي

وثواني عمري تتساقط في منفضة الوقتْ

***

دمشق/2009

زينب

زينب..

صاخبةٌ كالعرسِ،

وهادئةٌ كالطلقةِ في بيتِ النارْ

واضحةٌ كأنينِ العطرِ،

كلونِ الفجرِ،

وغامضةٌ كفراغِ السطرِ...

بكاءِ الناي

كجرحٍ في غسقِ الموالْ.

أبْسطُ من أقوالِ نبيٍّ،

أعْقدُ من لغةِ الأطفالْ.

تبتسم فتقسمني شفتينْ،

تحرثُني

تزرعُ ضحكتَها في الوجهِ العابسْ،

وتمسّ بنورِ مواشطِها أطرافَ جنوني،

تورقُ كلماتي في الجذعِ اليابسْ،

تبعثُ في أنقاضِ الروحِ صُروحَ الفارسْ.

زينب...

من زينب؟

ما زينب؟

زينب لا تُقرنُ لا تُكتبْ

وتفرُّ كما المهرة

من شركِ الوصف

و أفخاخ الكلماتِ

وتصهلُ في أقصى ورقي

تدنو؛ كي تذكي أرقي..

تمنحنُي سنةً من نوم؛

كي أهتف كالشعراء

(مجانين هواها):

هي ذي

مابين جفوني و الحدق.

***

الملند/2011

وجهك

يُغرق الكونَ في الصمت

لا نأمة فيه لولا

حسيسُ الفؤادِ وقودِ هواك الذي يحترقْ

ثَمَّ أنشوطةٌ من أثيرٍ

تحاصرُ في الدَّربِ خصرَكِ أنت

فقولي لماذا

هو الكون من يختنقْ؟!

***

الملند/2011

ليس رثاء لابن ياسر

وأخيراً

سقطَ ابنُ سميّة

خرّ صريعاً

ويحه.....

«ويح ابن سمية....»

لم يذكرْ أحدٌ في مأتمِهِ المتواضعِ شيئاً عنه،

والكلُّ تسابقَ في استظهارِ حديثِ رسولِ اللهِ...

توزَّعَ بين الجيشينِ الفقهاء

تباروا

في التحليلِ..

وفي التفسير..

وفي التأويل..

وفي تقليب النص على أوجهه..

ما أكثرها!...

أذهلَنا أوّلُهم ببلاغتِهِ..

والثاني أدهشَنا بفصاحتِهِ..

والثالث أتحفنا ببديعِ السجعِ..

والرابع.........

لم أفهمْ ما قالَهُ هذا المشغولُ كثيراً بجمالِ عباءتِهِ

والخامس...

لم أصغِ إلى ما قال الخامسُ والسادسُ ... والعاشرُ..

إذ كان يطوفُ ببالي ذاك الجسدُ التسعينيُّ

وقد سُجِّيَ رملَ الصحراءِ

يحدِّق للأعلى.....

هل تبحثُ عن أحدٍ يهتفُ فيك:

ألا صبرا...

واشتعلتْ بعيوني قهقهةُ الدمعْ

أسملت عيونه

عذراً.......

لن تلمحَ أحداً

لن تلمحَ من شيءٍ أبداً

فكما أعشاك، فقد أعشاهم

يا عمار

غبار النقعْ

آهٍ... يا بنَ سميَّة

يا آخر أوراق التوتْ

والويل لنا

–آلَ الفقراء–

الويل لنا

كيف تركناك

أبا اليقظان تموتْ؟!

***

الملند/2011

للتواصل مع الشاعر

حساب الشاعر في تويتر @sheikismail0

......

إيميل الشاعر/

sheikhismail.sy@gmail.com

تم بحمد اللّه


ديوان
العرب
للنشر و التوزيع